



تمهل سيدي وأنت تقرأ. الأديب الراحل جمال محمد أحمد . هرم من أهراماتنا الأدبية والدبلوماسية والسياسية . وهو كذلك عندما كان العمل العام يستقطب المُبدعين . تأهيلهم يُجبر أي حاكم مرّ على وطننا أن يستنير بنيران ثقافتهم المُتأججة . هو أستاذ جامعي وكاتب وأديب و دبلوماسي تدرج في السلم حتى منصب وزير الخارجية كفاءة وليست منحة حاكم .

كان الراحل بوابة أطل منها كثيرون من داخل الوطن وخارجه على الأدب الأفريقي في بواكير النهضة الأفريقية من نير الاستعمار . كاتباً مُميز اللغة والأسلوب . خير تعبير شائع يصفه هو أنه كان مدرسة ، وأكاد أزعم أنه قد طور الكتابة العربية وقفز بها سماوات عالية منذ أكثر من أربعين عاماً . غادرنا في رحلة غياب أبدي في ثمانينات القرن الماضي ، وبقيت أحرفه تُنير دروب لم نزل نستطلع أثارها ، في الاكتشاف الأول . درر من رحيق الأدب كانت كتابته ، رغم أنه لم يكن مُقلّاً في الكتابة فقد سرقت عمره الدنيا فجأة .

من شمال الوطن منبته وسقى نبعه وطننا وأوطاننا مُجاورة كانت تحلم ، نثر لنا العذب من المكتوب . حريّ بنا أن ننقل لكم بعض نص من نصوصه الأدبية عندما استدرجته مجلة الدوحة القطرية في السبعينات من القرن الماضي (1978 م - 1979 م) ، على أيام رئاسة الدكتور محمد إبراهيم الشوش لتحريرها : عبدالله الشقليني 22/05/2005 م مشاهد من هارفارد هارفارد و بوسطن على ضفتي نهر شارلز طرفا شارب على شفة . دخلا التاريخ معا : بوسطن على نحو سمع العالم أصداء أحداثه ، هارفارد قرية بالقرب غير ذات شأن . هارفارد مشيت مع الأيام . ازدادت صيتا وفسحة ، بوسطن أعيانها نقل التاريخ ، بلت . لو لم تكن هارفارد لأضحت بوسطن مدينة يروحها عشاق الآثار والباحثون عن أنساب أهل الغلا ، المتخبرون طعمهم وشرابهم من مطاعم و مشارب في مجتمع أوصد الأبواب على نفسه وقنع بالذي كان . هارفارد باعثة الحياة فيها بأسانذتها وطلابها و زائريها .

لكنهما يحتاجان لبعض ، حاجة الزوج والزوجة يعرفان انهما لا " يلفقان " ، " كارهان معا يعيشان " . اليزابيث هاردوك " بوسطن " نوفمبر 1959 م) يقولون عن هارفارد إنها عن نفسها راضية ، وبها مزهوه . كثيرون يرمونها بهذا وهي كمن لا يعي بالقالة ماضية شأنها ، بعض الأحييين تضع في يد القائلين المُبرر . فعلت هذا وهي تحتفي بمن تخرجوا عام 1935 م منها . كان حافلا برنامج الحفاوة وشملت محاضرة عنوانها " واستوت في السماوات هارفارد " قصد الذين قاموا على الحفل أن يروحوا عن أنفسهم وأنفس زوارهم بعنوان كهذا للمحاضرة ، ولكن ما كان بد من أن يتساءل الناس ، قالوا ، أتصدر النكتة إلا عن فئة من الناس تكاد تقول لغيرها أنظروا ها هنا نحن القلة السعيدة ، لا يرقى لقم سعدنا إلا المصطفون . (ماكس كنلف " هارفارد " يوليو 71 في الشقة رقم 34 من الطابق الثالث والأخير في عمارة تُمسك باتنيتين أخريين عن يمين ويسار ، تطل كلها على بستانها الخاص وأشجارها الطوال حولها ، قضيت فترة الدراسة في هارفارد بدءاً بأول الشتاء ختماً بأوائل الصيف ، مائة وخمسة وثلاثين يوماً .

ما رأيت كل هذه الفسحة في شبه هذه الرقعة ، كان أفسح بيت صغير سكنته ، لا اذكرني افتقدت شيئا فيه . تدخل تجدك تواء فيه . قبالتك خزانة المعاطف ، للبرد والحر ، ومشاجب للطواقي صنعت لثمحي الرأس والأذنين ، وقبعات خفيف بعضها للرداء ثقيل بعضها لحماة الشمس ، وأخرى للمظلة ، ومسددة لأحذية الشتاء وخفها وأحذية الصيف ، وفراغا لغير هذه من واقيات الحر والبرد ، فما اشتهر هذا الإقليم بطيب المناخ بزانة الصيف والشتاء هذه داخل الحائط في الصالون ، حيث مجلس أضيافك و مجلسك . خطوات قليلة عبر هذا الصالون يسار مدخلك فتحة لدهليز عرضه متر طوله أمتار معدودة . تقف لدى الفتحة وجها لوجه أمام خزانة شبيهة بأختها أكثر عرضاً وعمقاً داخل الحائط ملئت مفارش وأكياس و فوط و زجاجات كثيرة . هذه للبلاط ، تلك للحمام ، جنبها فوط أخرى صفراء صفت على بعضها لنظافة الغرف والأثاث .

يسار هذه الغرفة باب يقود لجرة نومك ، يمينها باب آخر لحمامك ، و خطوات من بعد قبالتك ، باب آخر يقود لمطبخك أعد ليخدم من يخدم نفسه ، على اليسار فتحة أخرى كفتحة المدخل على الدهليز تقود للمكتبة ، أفسح غرف البيت ، اقتعدت فيها طاولة الكتابة والقراءة مكاناً وسطاً وهي تكاد أن تملأ الجرة طولا وتملاها عرضاً ، على يسارها رف للكتب بعرض الحائط هي خزانة ملابس سيد البيت ، وفي منحى الحائط فراغ يبدأ عنده رف آخر للكتب . ترك هذا الفراغ في الحائط مكانا لنافتين تطل منهما إن شئت وترى من حيث تجلس إن شئت أشجارا طويلا تكاد أن تلامس النافتين ، وراءهما شارع غير ضيق غير فسيح ، فساحة مرصوفة هي الأخرى يحف بأركانها الثلاثة شجر ، تطل عليها عمارات ثلاث شبيهات بأختها هذه في فرنالدر اريف .

أول المساء تمتلئ الساحة سيارات حين يعود المعلمون والمعلمون الزائرون وأهلهم من أعمالهم في مدارس هارفارد العدة ، وتفرغ منها أول الصباح حين يروحون ، و عندها يتسلم الأطفال والأمهات الساحة ، وتملؤها لعب الأطفال وصياحهم ، وتنتقل الأمهات جماعات من دفع الشمس حين يشتد ذلك الدفء يستحيل حرارة ، إلى ظل الأشجار معهن أقفاصهن والإبر والخيوط ذات الألوان ، مكورة داخل أقفاصها الصغيرة . إن اضطررت ليوم تقضيه داخل البيت لن توحش . النافتان على يسارك عيناك لهذه الرئة الخضراء للطوابق الثلاثة هنا وأخواتها هناك عبر الطريق . تخضر الأشجار ويخضر العشب في الربيع ، و تزهر الشجيرات فتونس ، أول الصيف يذوي الورق تسمعه يتساقط وتهرع عربات البلدية تجمعها من على الطريق ، والصفرة تستحيل مع الصيف الحارق سُمرة لها هي أيضا مذاقها ، كما لبياض الثلج على رعوسها مذاق آخر تنسيك فرحتك بالبياض ، أن أوراق خضراء حية صحتك ، زمانا ، أنستك .

طبيعة رحيمة بك البيوت مريابيون الناس مريايا الناس . ظلها . سيد هذا البيت هو الأستاذ روبرت فترزجالد ، أستاذ الدراسات الإغريقية والرومانية في هارفارد . ما أتيت لي أن أراه ، و لا عرفت على التحقيق إن كان واحداً ممن في الصور الفوتوغرافية الصغيرة الثلاث في المكتبة . هذا بيت لا يسكنه غير رجل يحييا طمأنينة مُبدعة . كل ما في البيت سلام ، وبعيد ألا يكون هذا السلام إلا من صنع صاحبه . كل ما في البيت زاهد ، لكنه زهد من عرف كيف يجد السكينة داخله . لا يقول الواحد جديداً حين يقول إن لدراسات وقراءات واهتمامات الناس يبدأ في حياتهم التي يحيون والذي يتكونه وحاله . و صاحب هذه الدار ذهب المدى كله في هذا ، ذهبت به قراءاته ودراساته واهتماماته مدى أبعد مما تذهب بعامه الناس .

ترى أثر هذا المتاع الذي يقتنيه ، لكني أحب أن أترك هذا من أجل نظرة نلقها معاً على كتبه ، وتحس سلامة وطمأنينة إن قاومت إغراء أن تخرج كتاباً من مكانه ، إنه هناك لغرض ، يريد أن يبقى جنب عترته ليس عدلاً لقلقه . إنها كتب رجل يعني بكتبه عنايته بأعضاء جسده ، عينيه ، أذنيه ، ساعديه . لا سعد إن قلق كتاب ، عفر أو اتكأ في الصالون رف ، وفي المكتبة ثلاثة . كل ما في المكتبة ، غير القليل ، طبعت قديمة وحديثة لهومر و هيرودتس و ثيودوسيوس و هسيود و غيرهم من سدنة تاريخ وفكر و خيال و شعر الإغريق في الأصل وفي الترجمات العدة . وفي المكتبة أوفيد وفرجيل في الأصل وفي الترجمات . ما مللت الطواف على رفاق صاحب داري ، ليلة من ليالي في الشقة ولا يوماً من الأحاد التي قد تطول حين تفرغ العمارات من ساكنيها ، ذهبوا يريحون أجسادهم وأذهانهم المنهوكة أو يمتعون أنفسهم ويذكرون إن لها شهوات غير شهوة العلم ، في كيب كود ، مارتافنيارد أو بيوت ريف ، يقتنون . ما اختار صاحبي هذه الرفقة غيرها ، إلا قلة أثيرة ، اعتباراً في الذي رأيت حولي من كتب و من متاع . هذه فئة من الناس كبرت على الطموح نفسه ، سكونها كان داخلها علواً على صخب حروب المذهب والسلطان ، يستحيل لغير كبير على السلطان والجاه والمال والرفاه ، أن يغني كما فعل أوفيد في "إيكولوجي" أغانيه التي جمعها عشاق الحياة ، ما كان يدرك وهو يغني بأننا نهنئ لها نحن اليوم ألفا سنة من بعد ، بالذي كان يشدو به في زمان غير شاعر ، زمان ضجيج الفتوح ، بسالات الدماء ، سمو الغدر ، صراخ الساسة ، جدل الفقهاء حول شرعة الإمبراطورية ، عرق الناس تحت صخور الطرق بينونها لسكاري الجند ، وعباقرة الحرب من القادة .

شأنه شأن الأولين هومر و هيرودتس ممن اختاروا مجد الكلمة و جلسوا ، طوفوا ، يرقبون يكتبون خالد الشعر ويسجلون دقائق أفعال الرجال والنساء قرب هؤلاء يجلس وينام فترزجالد يستريح لأصواتهم الناعمة تصف أفسى القلوب بأنعم النغم ، يستنيم لها ، تجنيه من وراء القرون ، أصلحت صوتها السنون ، السنون تلامسك في حنان جدك الكبير الرحيم ، على ظهرك وصدرك و ساقيك ، تخدر كلها بلذها منامها تنام . لنخرج من شقة فترزجالد التي أسكن ، لندنيا هارفارد ، كمبردج ، أطلنا الوقوف عند الكتب ، والذي توحى الكتب . كفاية في طريقي أنا على مسيرة نصف ساعة من صخب هارفارد . أعبّر بستان العمارات الثلاث أول الصباح أدخل فرنال دريف ، يمينها ويسارها عمارات أخرى كهذه التي في شقة منها أسكن . لكل ثلاث من العمارات بستانها وأشجارها وشجيراتنا . تنتهي كلها بعمارة مطبعة جامعة هارفارد ، ذات التاريخ الطويل ، حماها من عبدة اللوائح وسدنة الموازنات أخريات الستينات الدكتور درك بك رئيس هارفارد اليوم / كادوا بمنطقهم المالي أن يقصوا من جناحها قالوا إنها لا تنشر غير كتب العلم الخالص التي لا تنشرها المطابع التجارية ، لو لم تكن مطبعة هارفارد لماتت في أراجها كتب من لا يكتبون لغير أضرابهم وغير طلابهم . الكتابة لطلابك وأصفيائك ثم كبير . هذه قلة . فقراء أكثرهم لا يشترون . يسار هذه المطبعة تدخل جاردن ستريت ، شارع من أطول شوارع كمبردج ، يمينك على رابية متحف النباتات ، قربه عند بيودي بيت من طوابق خمسة فيه لطلاب علم وصف الإنسان ، الأنتروبولوجيا ، كل ما يحتاجونه هنا . من خط الاستواء ومن قطب الشمال . يسارك رادكلف كلية النبات التي بدأت منذ مائة عام في زقاق قرب قلب المدينة كانت ذلك الزمان أزهر الشوارع . غير بعيد من هذه العمارة الحديثة يحيط بجوانبها كلها العليا زجاج صقيل شفاف ، منزل الطلاب الكبار في 29 قاردين ستريت منزل بابل كانت في بابل سيدة من السودان ، تعد لدراساتها العليا في الحقوق .

أذكر دارها فأذكر منزل لا في عين شمس أظل حافظ بما أعرف كيف يستظعن . قال لي أستاذها إنها تسعده بالذي تكتب . في دارها كل مساء أزواج من أمريكا اللاتينية ، وأزواج من كينيا ، أنا حين يلح بي الحنين أجدي هناك . يأكلون مما تعد لهم من طعام السودان ، يأكلون كما لو كانوا يخشون أن لن يكون طعام غدا ، يرفع للسما ثم يسترخون . يبحثون ، يأنسون ، يجدون ، يهزلون خالد الصغير ابن سيدة الدار وحده عالم . لو كان لسيدة غيرها لما كتبت بطاقة عيد . دعك بحث في فقه قانون ، قال لي أستاذها فشر ، إنه يقرأ ما تكتب كأنه يقرأ ضوءاً جديداً على موضوع الكتابة . سأسرع بك من هنا ، لن نقف عند منازل بعض المعلمين ، لن نقف عند فندق شراتون فأمامنا ساحة لا يسعنا إلا أن نقف عندها ، إنها ساحة كمبردج . تحدثك أشجارها عن عمرها ، وكتباتها الصغيرة يمينها آية من آيات كمبردج في المعمار ، تباهي كل واحدة أختها بتاريخها وما هي في عمر سنت بول في لندن ، لكنها واحة في الصخب الذي يمر أمامها من حافلات و سيارات ومارة .

حين تحينها تجيء طرف المدينة ، بينك وبينها دقائق تطول وتطول في الشتاء ، فالأرصفة هي هي التي وسعت الناس أخريات القرن الثامن عشر حين بنيت الكنائس . ويتراكم عليها الجليد ، فتجذبك تلتقط خطوك بخفية . تقف لسيدة قادمة بعض الأحايين ، وتلف جسمك يمينا أو يساراً لغيرها ، تحس لوقتك إن كنت في عجلة من أمرك إن مشيت نحو براتل ستريت حيث الطريق أفسح ، وحيث لويب دراما سنتر . إنه لا يدعك . ما عندك معدي من أن تقف عنده ، إنه مسرح المدينة الأرقى وإليه تدعى فرق الولايات المتحدة وفرق أوروبا ، وكمبردج مفتونة بكل شيء حتى تخالها دعياً . في مسرح لوب تجيء فرق أعقد الباليه وتجيء أعقد الأوبرات ، لكنك رأيت صدر حديثي هذا الحياة التي بعثتها وطلابها الأساتذة ، فلنلق من نستطيع لقاءهم في سيرنا السريع هذا ، ونلطف بهارفارد . جمال محمد أحمد مجلة الدوحة القطرية (1978 م - 1979 م)